



التربية من وجهة نظر فلسفية: مقارنة فلسفية بين التربية الكلاسيكية والتربية التفاعلية

حنين أميمة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط، المغرب.

oumaziad2014@gmail.com

المخلص: ستكون هذه الورقة البحثية بمثابة فرصة لدراسة التربية من منظور فلسفي، متتبعاً تطورها بداية من التصورات الكلاسيكية إلى النموذج التفاعلي المعاصر. يبدأ المقال بالعودة إلى أصل كلمة تربية وما المقصود بالتربية الكلاسيكية وماهي معالمها؟ ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن فلسفة التربية، والعلاقة بين التربية والفلسفة، وما الدور الذي لعبته هذه الأخيرة في نقد وتوجيه وإعادة النظر في مختلف القضايا التربوية المطروحة؟ فالتربية في الفكر الفلسفي قضية محورية، تُحدد باعتبارها عملية تثقيف تربط بين التكوين العقلي والأخلاقي للفرد، وهذا ما ستسعى هذه الورقة إلى تسليط الضوء عليه من خلال عرض جملة من التصورات الفلسفية، من قبيل تصورات أفلاطون، روسو، إضافة إلى بعض التصورات الفلسفية المعاصرة من قبيل غرامشي وديوي؛ وذلك بغرض إحداث نوع من المقارنة لاستنتاج النقاط المشتركة والمختلفة بين هذه التصورات. بالإضافة إلى ذلك ستحاول هذه المقالة تقديم نقد للتربية التقليدية باعتبارها نمطاً سلطوياً، يعتمد على التلقين والانضباط والقمع، كما ستسلط الضوء على نموذج التربية التفاعلية التي تقوم على التجربة، والتفاعل الاجتماعي، وربط المعرفة بالحياة وفي هذا السياق. سيقدم البحث نموذجاً للمربي والفيلسوف الأمريكي المعاصر جون ديوي. وفي الختام سيخلص البحث إلى تحليل تحديات التربية في السياق المعاصر، مؤكداً على أهمية التربية التفاعلية في مواجهة التحولات الرقمية والثقافية الراهنة، باعتبارها أداة لبناء مجتمع ديمقراطي ومرن.

الكلمات المفتاحية: التربية، الفلسفة، فلسفة التربية، التربية التفاعلية.

Education from a Philosophical Perspective: A Comparison between Classical Education and Interactive Education

Hanin Oumaima

Faculty of Letters and Human Sciences, University of Mohamed V-Rabat-Morocco

oumaziad2014@gmail.com

Received 17/07/2025 - Accepted 17/8/2025 Available online 27/8/2025

Abstract: This research paper serves as an opportunity to explore education from a philosophical perspective, tracing its evolution from classical conceptions to the modern interactive model. The article begins by revisiting the origin of the term "education" and clarifying the meaning and features of classical education. It then addresses the philosophy of education, examining the connection between philosophy and education and the role philosophy plays in questioning, guiding, and reassessing various educational issues. In philosophical thought, education is a central concern, defined as a formative process that links intellectual and moral development. This paper aims to shed light on this by analyzing a range of philosophical views, including those of Plato, Rousseau, and contemporary thinkers like Gramsci, and Dewey, in order to compare their

perspectives and highlight points of convergence and divergence. Furthermore, the paper offers a critique of traditional education as an authoritarian model based on rote learning, discipline, and repression. In contrast, it emphasizes the interactive educational model, grounded in experience, social interaction, and connecting knowledge to life. In this context, the work will present the educational philosophy of the American thinker John Dewey. Finally, the study will analyze the challenges of education in the contemporary context, highlighting the importance of interactive education as a tool for building a democratic and adaptable society in the face of digital and cultural transformations.

Keywords: Education – philosophy – philosophy of education – interactive education.

1- المقدمة

تعد التربية من أهم القضايا التي شغلت تفكير الفلاسفة والباحثين المتخصصين في الشأن التربوي؛ وذلك لما لها من دور فعال ومهم، يتجلى تحديداً في بناء الفرد والمجتمع، وتحديد مستقبل الثقافة والحضارة. فهي عند بعض المهتمين وسيلة لإعادة إنتاج القيم والمعرفة والمبادئ والقوانين والنظم، وعند آخرين أداة فعالة لتحرير العقل من مختلف الإيديولوجيات، والأفكار الزائفة التي تُلتقط عن طريق السمع ويتبناها الفرد كحقيقة ومسلمة لا شية فيها.

وبالإضافة إلى ذلك يمكن اعتبار التربية، بمثابة تثقيف للذات وصقل لمكائنها، وعاملاً لتحقيق الكمال باعتبارها رغبة تحرك الإنسان وتدفعه إلى تطوير قدراته، حتى يكون عضواً فعالاً مرحباً به داخل البيئة الاجتماعية التي يعيش في كنفها، القائمة هي الأخرى على أسس وقواعد ومبادئ تعمل على تنظيم العلاقات بين الأفراد، بغرض تحقيق المصلحة العامة والحفاظ على التوازن والسير المستقر للمجتمع.

ومع تقدم المجتمعات، وما صاحب ذلك من تحولات وتغيرات في أنماط الحياة، عادت مسألة التربية لتطرح نفسها بإلحاح في السياق المعاصر، خاصة في ظل التطور السريع الذي بات يشهده العالم مؤخراً على المستوى التكنولوجي، تحديداً ثورة الذكاء الاصطناعي، التي خلّفت إلى جانب نتائجها الإيجابية، انعكاسات سلبية بليغة، الأمر الذي دفع إلى صياغة نظم تربوية قادرة على مواجهة مختلف التحديات التي تواجه عالمنا اليوم، كتحديات الرقمنة، وتفتت القيم، وتغير دور المدرسة.

2- مشكلة البحث:

على الرغم من تعدد النظريات والتصورات التي قدمت حول التربية، يبقى النقاش قائماً حول أي نموذج هو الأكثر نجاعة وفاعلية: أهى التربية التي تقوم على أساس التعليم النظري واعتماد التلقين والحفظ كآلية للتعليم، أم التربية التفاعلية التي تسعى إلى تحقيق التفاعل بين الأفراد ومحيطهم الاجتماعي، من خلال تعزيز التعلم عن طريق التجربة والتواصل والانفتاح على المحيط الخارجي.

ومن هذا المنطلق يمكن صياغة إشكالية هذه المقالة البحثية على النحو الآتي: هل يمكن أن تكون التربية التفاعلية بديلاً تربوياً فعّالاً لمواجهة التحولات التي يعرفها المجتمع المعاصر؟ وكيف ذلك؟

3- فرضيات الدراسة:

تكمن الفرضية الرئيسية للدراسة في اعتبار التربية التفاعلية أنجع وسيلة لتكوين تنشئة اجتماعية مبدعة، وأفضل نموذج مفتوح معزز للتعاون والتواصل بين الأفراد، وذلك لأنها تضع المتعلم في صلب العملية التربوية.

ومن الفرضيات التي تفترضها الدراسة كذلك:

1- التربية الكلاسيكية على الرغم من أهميتها إلا أنها تهمل الجانب الإبداعي للمتعلم.

2- التربية التفاعلية أفضل نموذج يمكن اعتماده في سياقنا المعاصر.

- 3- يساهم التحليل الفلسفي للنظرية التربوية في الكشف عن مكامن الضعف وتعديلها أو إقتراح بدائل عنها.
4- هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح مدى أهمية التحليل الفلسفي للقضايا التربوية، ودوره المتمثل في الكشف عن مواطن الضعف والخلل فيها، كما تهدف الدراسة إلى جانب ذلك، إلى توضيح مدى أهمية نموذج التربية التفاعلية باعتبارها نمطاً من أنماط التربية الذي يسمح بالانفتاح على الواقع، وتسهيل الضوء على قضاياها المطروحة، والسعي إلى إشراك المتعلمين في هذه القضايا وحلها وفق منهج تجريبي يخلق التفاعل بين الأفراد ومحيطهم.

5- أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في معالجتها لواحدة من أهم القضايا التي باتت تطرح اليوم وبشكل قوي في الساحة الفكرية بصورة عامة والفلسفية على وجه التحديد، ففي ظل التحول السريع الذي يشهده العالم، فضلاً عن الثورة التكنولوجية التي بسطت سيطرتها على كل مناحي الحياة الإنسانية، بات من الضروري إعادة طرح سؤال التربية لتسهيل الضوء على ما أصاب هذه الأخيرة من تحولات، فضلاً عن إبراز البعد الفلسفي في الممارسة التربوية والسعي إلى ربط المبادئ التقدمية بواقعنا التربوي المعاصر.

6- حدود الدراسة:

تكمن حدود هذه الدراسة في:

- أ- الحدود الزمانية: تعتمد هذه الدراسة على نماذج فلسفية ممتدة من الفترة اليونانية إلى الفترة الحديثة والمعاصرة من تاريخ الفلسفة.
- ب- الحدود المكانية: لا ترتبط هذه الدراسة بسياق مكاني معين، بل تهتم فقط بعرض بعض التصورات الفلسفية ومقارنة بعضها ببعض.
- ت- الحدود الموضوعية: تركز هذه الدراسة على المقاربة الفلسفية لموضوع التربية دون الانفتاح على الأبعاد السوسولوجية والسيكولوجية إلا في حدود ما يتوافق مع التحليل الفلسفي.
- ث- حدود المنهج: تعتمد هذه الدراسة على المنهج التحليلي المقارن للتصورات الفلسفية، ولا تدخل في إطار الدراسات الميدانية أو التجريبية.
- 7- الدراسات السابقة:

من بين الدراسات التي تناولت هذا الموضوع نجد دراسة (Baldacci. n.d) تحت عنوان *philosophy of praxis and education in Gramsci*، والتي أكدت على أهمية تصور غرامشي في التربية، ليس بوصفها نقلاً للمعلومات، بل بوصفها أداة لتعزيز الوعي النقدي وبناء الثقافة.

بالإضافة إلى هذه الدراسة، يمكن الإشارة إلى دراسة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها وهي دراسة (R ford.n.d) تحت عنوان، *pedagogically Reclaiming Marx's politics in the Post digital Age: social formation and Althusserian pedagogical Gestures*، يبين هذا المقال مدى أهمية تصورات (ألتوسير) ودورها في تطوير نهج تربوي ماركسي قائم على أساس التعاون المشترك بين الأفراد.

ونظراً لأنّ المقال لا يسعنا لعرض مجمل الدراسات السابقة، فلا بدّ من الإقتصار على عدد محدود، لكن هذا الأمر لا يمنعنا من عرض نموذج ثالث لدراسة بالغة الأهمية هي الأخرى وهي دراسة (W. Eliot n.d) (حول المربي والمفكر المعاصر Herbert Spencer هذا الأخير الذي حدد التربية باعتبارها نشاطاً لتهيئة التنشئة للتكيف مع محيطها، مع تأكيده على جانب ذلك على أهمية الإستمتاع في النشاط التعليمي).

8- منهج الدراسة:

ستعتمد الدراسة على المنهج التحليلي المقارن، وذلك بغرض تحليل مختلف التصورات والأفكار والنظريات الفلسفية التي ستطرحها، بالإضافة إلى المقارنة بينها بغرض الكشف عن نقاط التشراك والاختلاف.

9- ميزة الدراسة:

ما يميز هذه الدراسة هو كونها تقدم مقارنة بين نموذجين مختلفين في التربية، وهما النموذج الكلاسيكي والنموذج التفاعلي، كما تساهم في إبراز البعد النقدي لفلسفة التربية والمتمثل في مساءلتها للمفاهيم التربوية السائدة، والعمل على إعادة التفكير فيها، بالإضافة إلى ذلك تكمن ميزة هذه الدراسة في إغناء النقاش التربوي الفلسفي وفتح آفاق جديدة للبحث والنقاش.

10- التربية في سياقها العام

سبقت الإشارة في المقدمة إلى أنّ التربية كانت ولا تزال إلى حدود الساعة من أهم المواضيع التي طُرحت في الساحة الفلسفية، وما يوضح ذلك طبعاً هو مجموع التصورات والآراء والنظريات التربوية المختلفة، التي قُدمت كمرجع أساسي ينبغي الأخذ به لتحقيق تربية أكثر نجاعة، لكن قبل الخوض في عرض بعض من هذه التصورات الفلسفية حول هذه المسألة، لا بدّ بداية من الوقوف على الدلالة الأولى للتربية كمصطلح عام.

ولتحديد المقصود بالتربية كمفهوم، لا بدّ من العودة إلى الأصل الاشتقاقي للكلمة؛ ففي اللسان الفرنسي والإنجليزي ترادف كلمة "تربية" كلمة **Education**، وهي ذات أصل لاتيني يعود إلى الكلمة اللاتينية **Educare** الدالة على التربية أو التعليم. وينبغي الإشارة إلى أنّ استخدام هذه الكلمة في اللغة الإنجليزية كان قد بدأ في القرن الخامس عشر ميلادي، حيث تحدد معناها بحسب ما جاء في قاموس أوكسفورد (هوندرتش. د. ت)، بوصفها عملية نقل للمعارف والقيم والتقاليد من جيل لآخر، تتجلى أهميتها في الدور المنوط لها في تهذيب وتنمية سلوك الفرد وتعزيز قدراته ومهاراته، كما يتجلى دورها الكبير أيضاً في تشكيل المجتمع وبناء مستقبله.

وفي ذات السياق يمكن أن نسوق تعريفاً آخر للتربية وهو التعريف الذي عرضه الدكتور مراد وهبة في معجمه الفلسفي (وهبة، 2007)، حيث حدّد التربية انطلاقاً من موضوعها "باعتبارها جملة من المعلومات والمهارات التي أنجزت في الماضي، والتي يتم نقلها من جيل لآخر عن طريق المدرسة"

ومنه يمكن استخلاص نقطة مهمة من التعريفين السابقين، والبداية مع تعريف أوكسفورد للتربية بوصفها أولاً نقلاً لمجموع القيم والمعارف والمبادئ من جيل لآخر، وثانياً بوصفها أداة لتعديل السلوك الإنساني وتمييزه عن السلوك الحيواني الفطري، بمعنى صقل للذات وتهذيباً للسلوك وتنقيف للنفس. أما التعريف الثاني الذي قدمه مراد وهبة، فيمكن القول إنه اقتصر فقط على الوظيفة المألوفة للتربية باعتبارها نقلاً للمعارف والإنجازات التي أنجزت في الماضي، أي صورة التربية الكلاسيكية المعهودة منذ سنين في المدارس والجامعات على حد سواء.

وبالإضافة إلى ذلك يمكن القول، إنّ التربية بمعناها الكلاسيكي بشكل عام، تُمثل نموذجاً سلطوياً يربط التربية بالطاعة، والانضباط والخضوع، بالإضافة إلى اعتماده على التلقين والحفظ كأساس. وهذا الأمر يظهر بجلاء خاصة في التربية الدينية القديمة في الأديرة، أو التربية العسكرية في ثكنات والمعسكرات، حيث يُنظر للمتعلم "كصفحة بيضاء" فارغة لا بد من ملأها بمعارف جاهزة (ديوي، 1978).

ومنه فإنّ كلا التعريفين يختلفان بعضهما عن بعض في إطار تحديدهم للمعزى من التربية، والفرق واضح لا محالة. فإذا كان تعريف أوكسفورد حدد التربية كنقل للمعارف وصقل وتهذيباً للسلوك، كما هو الحال عند شيشرون، فإنّ مراد وهبة حصر تعريفه للتربية في الوظيفة الكلاسيكية المتمثلة في حفظ المعارف ونقلها عبر الأجيال فقط.

10- فلسفة التربية بين العلاقة والدور

1- علاقة الفلسفة بالتربية

كان حضور الفلسفة في السياق التربوي، حضوراً ممزوجاً بالغياب، لكن على الرغم من ذلك فلا يمكن نكران دور الفلسفة وأهميتها في التفتيح للأسس التربوية وصياغة النظريات، إذ تجلّى عمل فلسفة التربية ضمن إطارها التحليلي، في توضيح العلاقة بين الدراسات الفلسفية المختلفة وما يربطها بالقضايا التربوية، لأنه بدون هذا الأساس يبقى البحث التربوي غير محدد (مرسي، 1982).

ومعنى ذلك أنّ فلسفة التربية تأخذ على عاتقها إعادة النظر في مختلف النظم التربوية، كما تعمل على تقليبها على وجهيها الصالح منها والطالح، بمعنى تأخذ على عاتقها تحليل وتدقيق النظريات التربوية والأسس والمناهج المعتمدة، وتعمل على تصحيحها أو اقتراح بدائل عنها، وهي في ذلك أشبه إلى حدٍّ ما بالتحليل التربوي الميداني، مع اختلاف بسيط يتجلى في كون هذا الأخير يكون أكثر تجلّيا وحضورا في الميدان، على عكس فلسفة التربية التي قد تكتفي أحيانا بالانتظير.

ومن هذا الأساس يمكن القول إنّ فلسفة التربية هي المعيار الذي من خلاله نقيس صحة النظريات التربوية ومدى نجاعتها وصلاحيتها، فبعض النظريات على سبيل المثال نعجب بها وندرجها في سياق التعلم، لكن لا نتساءل عن علاقتها بالتربية أو المغزى من تدريسها، أو حتى التساؤل عن الطريقة الصحيحة لتدريسها.

على سبيل المثال، نظرية فرويد في علم النفس حاضرة ومنتشرة في مجال التربية، يتم تدريسها وتلقينها دون التفكير في الطريقة الصحيحة التي تسلط الضوء على الاختلاف الحاصل بين الموقف التربوي والموقف العلاجي (مرسي. 1982)، وأين ينتهي هذا الموقف وأين يبدأ الآخر؟ إننا، إذن، ندرس لكن بدون أن يكون لنا وعي عن أهمية ما ندرسه، أو لماذا ندرسه، أو كيف ندرسه؟ وهنا دور الفلسفة، التي تسهم في تشكيل هذا الوعي، وتدفع إلى تريض العقل على التحليل والتمحيص وتعزيز مهارات التفكير النقدي.

2- دور فلسفة التربية

تلعب فلسفة التربية دورا مهما، يتجلى بالدرجة الأولى في وظيفتين، تظهر الأولى في مساعدتها -كما سبقت الإشارة إلى ذلك- على التفكير في المفاهيم والمشكلات التربوية بصورة دقيقة وعميقة (مرسي. 1987)، معنى هذا أن لفلسفة التربية دورا توضيحيا يساعد على تقويم الحجج وتحريير العقول من الدوغمائية، ما ينعكس على نحو إيجابي فيما بعد على السياسات والقرارات التربوية.

أما ثاني وظيفة فتتحدد من خلال مساعدة فلسفة التربية على توضيح التفاعل الحاصل بين الأهداف والأغراض التربوية، ناهيك عن تقديم رؤية للأهداف الجديدة. وبهذا يكون دور فلسفة التربية، تحديدا، هو توجيه العمل التربوي؛ ووفقا لهذه الوظيفة تقف هذه الفلسفة في منتصف الطريق بين المستوى النظري للتحليل الفلسفي والمستوى العملي التطبيقي الذي يظهر على مستوى الفعل التربوي، وذلك وفق ثلاث طرق هي:

- 1- ترتيب نتائج المعرفة التي لها علاقة بالتربية.
- 2- تمحيص الأهداف.
- 3- التوضيح والتنسيق بين المفاهيم الأساسية التي تجعل للعملية التربوية معنى محدد.

11- نماذج لبعض التصورات الفلسفية في التربية

1- التصور الأفلاطوني للتربية

سبقت الإشارة إلى حضور التربية بشكل لافت في السياق الفلسفي، ولتحديد معنى التربية من وجهة نظر فلسفية، لا بدّ من الانطلاق بداية من تصور أفلاطون فيلسوف اليونان، هذا الأخير الذي عبر عن أفكاره التربوية بالظبط من خلال كتابه الجمهورية، حين حددها كعملية صقل وتهذيب وتنقيف للذات الإنسانية، واعتبرها الأداة الفعالة التي ينبغي توظيفها لتعديل سلوك الإنسان السوي والمواطن الصالح، الذي يُشكل النواة الرئيسة لبناء المجتمع أو بحسب تعبيره هو، النواة الرئيسة لبناء المدينة الفاضلة.

كان أفلاطون دوما ما يؤكد على ضرورة تلقين الأطفال تعليما وفلسفة تتناسب مع أعمارهم الصغيرة (أفلاطون. د. ت)، ويحترم في الوقت نفسه نموه وتطورهم، ففي فترة شبابهم واقترابهم من الرجولة، يُصبح من الواجب عليهم توجيه قدر كبير من العناية لأجسامهم، وكلما تقدموا في السن كان لا بدّ لهم من مضاعفة دراستهم العقلية؛ أي العمل على تطوير مهاراتهم الذهنية من خلال التعرف على مجموعة من العلوم وفي مقدمتها الرياضيات، والفلسفة ناهيك عن الآداب والفنون. وعند وصولهم مرحلة ضعف القوة الجسدية، التي كانت تمكنهم قبلا من أداء مهامهم السياسية والحربية داخل الدولة، عندئذ ينبغي إعفائهم من كل التكاليف وتركهم يعيشون أحرارا لا ينهمكون في عمل جدي آخر ما عاد الفلسفة، لأنها حسب رأي هذا الفيلسوف هي السبيل الوحيد لتحقيق السعادة في الدنيا والحياة الأخرى بعد الموت.

ومنه يمكن استنتاج أنّ تصور أفلاطون للتربية لا يقف عند حدود التلقين والتلقي أو الحفظ والاسترجاع، بل يتعداه إلى مجال أوسع، فالتربية حسب تصوره تطوير وصل للذات الإنسانية من جميع نواحيها النفسية، السلوكية والعقلية، بمعنى آخر أكثر وضوحاً التربية عند أفلاطون لا تنحصر في مهارة القراءة والكتابة فحسب، بل هي عملية تطوير وصل شاملة ومحيطة بجميع أبعاد الذات الإنسانية، ونشاط مستمر منذ ميلاد الإنسان إلى حين وفاته.

2- تصور جان جاك روسو للتربية ودور المربي

وما دام الحديث متواصلاً عن عرض نماذج لبعض التصورات الفلسفية حول التربية، لا بد من تسليط الضوء على أحد أبرز التصورات الفلسفية في الفترة الحديثة، التي يمكن اعتبارها بمثابة تمهيد صريح لما نشهده اليوم من تطور في النظم التعليمية، إنه تصور الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو، المعروف في كتابه "إميل"، هذا الأخير الذي يُعد مرجعاً أساسياً عند المتخصصين والمهتمين بقضايا الشأن التربوي، ينقسم الكتاب إلى خمسة كتب، تتبع مساراً كرونولوجياً يُسلط الضوء على مراحل إميل العمرية من المهد إلى اللحد، مع تحديد التربية المناسبة لكل مرحلة على حدة.

يدور موضوع الكتب الثلاثة الأولى حول الطفل إميل، بينما يدور موضوع الكتاب الرابع حول مرحلة المراهقة، وما تستدعيه هذه المرحلة العمرية الحساسة والمضطربة في الآن نفسه من تربية من نوع خاص، أما الكتاب الخامس فيدور موضوعه حول تربية شريكة إميل صوفي .

ينطلق روسو من فكرة أساسية وهي أن الإنسان خير بطبعه، يولد صالحاً خالياً من كل شر أو حقد أو غل أو سوء (روسو. د. ت)، وهذا الوصف ينطبق على الإنسان في حالة الطبيعة الأولى التي شكلت وضعاً لا علائقياً كان فيه الفرد مقياساً لنفسه ولا علاقة له مع غيره (روسو. 2009). ويضيف تعزيزاً لفكرته أنّ هذه الصفات السلبية بدأت تظهر عندما دخل الإنسان في علاقات مع بني جنسه، حيث نشأ الصراع والتضارب وحرب الكل ضد الكل لغرض تحقيق الأهداف والغايات الشخصية وهذا هو الوضع الذي ميز حالة ما قبل المدنية، أي حالة ما قبل القوانين.

وينبغي الإشارة إلى أنّ هذه الفكرة هي نفسها التي نجد تفصيلاً دقيقاً لها في كتابه "أصل التفاوت بين الناس"، الذي يعتبر بمثابة تقديم مفصل لكتابه الموسوم بـ"العقد الاجتماعي"، وقد تطرق فيه إلى رصد تطور طرق ونمط عيش الأفراد، بداية بحالة الطبيعة، التي كان فيها الفرد مقياساً لنفسه، في غنى عن الآخر، تقتصر مطالبه وحاجاته على الأكل والشرب والنسل والراحة (روسو. 2009) منها إلى مرحلة ما قبل المدنية، باعتبارها المرحلة المفصلية التي بدأ فيها المرء بتطوير قدراته؛ رغبة في تجاوز النقص الذي يعتليه وسعيًا منه إلى تحقيق الكمال (روسو. 2009) الذي اعتبره روسو أصل كل الشرور.

فمبدأ القابلية للكمال كما يسميه هذا الفيلسوف، دفع الفرد إلى سلك سبل لا تراعي حرية الآخر ولا قيمته كشخص، حيث يصبح الهدف الرئيس -وفقاً لهذا المبدأ- هو أناة نفسه و فقط، الأمر الذي ينشأ عنه صراع و قتال وتضارب، يستدعي وضع جملة من القوانين والقواعد الصارمة، التي حدثت -حسب تصور روسو- من الحرية الشخصية للفرد، وجعلته أسيراً يسير على منوالها وإن خالفها يعاقب، وهذا هو حال المرحلة الثالثة أي المدنية التي كبلت حرية الإنسان بأصناف القوانين (روسو. 2009).

لقد كان هدف روسو هو تخليص الإنسان من شرور الإنجراف الحر المطلق وراء الغريزة دون قيد، ولن يتم ذلك بحسبه إلا عن طريق التربية؛ لما لها من أهمية بالنسبة للإنسان والمجتمع في صورة أوسع، فصناعة الفرد الذي هو نواة هذا المجتمع لا تكون إلا إذا تعهد المربي بتربية صحيحة تراعي مقتضيات الطبيعة الإنسانية الثابتة عند إميل (سعيدة. د. ت)؛ بمعنى تربية تراعي الحالة الطبيعية الأولى للإنسان قبل أن يصطدم بمجموع القوانين والمبادئ التي أفسدت عليه سكينته الأولى.

يتحدّد تصور روسو في التربية بشكل بسيط في نقده للتربية بمعناها الكلاسيكي، أي من حيث هي تلقين الفرد للمعارف والعلوم، وتضحية بالحاضر لصالح مستقبل بعيد، وبالتالي صناعة العقول في مقابل إهمال صناعة الأفراد ذوي المشاعر والأحاسيس، فالأساسي في تعليم الطفل، ليس هو حشو دماغه بأكبر قدر من المعارف، بل الغاية الأساسية تكمن في السماح للأفكار الدقيقة الواضحة بالترسب والترسخ في ذهنه، فضلاً عن فسح المجال للانفتاح على الفنون وخلق فرص للإبداع (روسو. د. ت)، ولن يتم ذلك إلا إذا تم بالفعل اعتماد تربية تدعم هذا النهج.

لقد وصف روسو التربية كعملية تصاحب الفرد منذ ولادته، فبالعودة إلى كتابه العمدة سنجده يشير إلى أنماط مختلفة من التربية التي تتناسب كل مرحلة عمرية، بدأ بمرحلة الولادة حيث أكد على أهمية الرعاية التي ينبغي أن يقدمها الأبوين للطفل نظراً لضعفه

الشديد على عكس صغار الحيوانات، كما أكد على ضرورة إرضاع الأم لطفلها (روسو. د. ت) لأن ذلك سيعزز من مشاعر الدفئ والحنان، ناهيك عن ذلك فقد أشار روسو إلى دحضه لفكرة القماط معتبرا هذا الأخير بمثابة قيد يمنع حركة الطفل وحرية (روسو. د. ت).

إلى جانب ذلك أكد جان جاك روسو على ضرورة التدرج في العملية التربوية بدأ بالمحسوس وصولا إلى المجرد (روسو. د. ت)، وذلك لأن إميل الطفل لا يمتلك بعد القدرة على إدراك المعارف المجردة، وبالتالي فالحواس في هذه الفترة هي مرشده الأول للفكر ودليله في عملياته الأولى، يتعلم عن طريق الحس والتجربة والتفاعل دون عنف أو ضغط، ما يجعل من عمل المربي في هذه المرحلة هو توجيهه فحسب لا الفرض؛ أي توجيه إميل للتعلم لا فرضه عليه.

وكما يشير روسو، فالكثير من الفنون ترى أنّ هدفها الأوحده هو النفع العام، لكن في مقابل ذلك "فأكثر الفنون منفعه للناس هو فن تكوين الرجال" (روسو. د. ت) وهذا الفن هو التربية بمعناها الصحيح.

يبدو أنّ لتصور روسو التربوي أهمية بالغة، للأسف، لن تسعنا هذه المقالة لعرضه بالتفصيل، لكن الفكرة الرئيسة التي يمكننا أن نستخلصها من تصوره التربوي هو انتقاده بشكل كبير للتربية التقليدية القائمة على أساس التلقين فحسب، إذ يقترح في مقابل ذلك تربية جديدة تراعي الجوانب الشعورية والأحاسيس الوجدانية للفرد، منفتحة على الطبيعة والفن سواء كان شعرا أو نحتا أو رسما لأن هذا الانفتاح بالنسبة له سيعزز وبشكل كبير من الوعي النقدي للمتعلم وقدرته الإبداعية.

هذا بالإضافة إلى نقطة مهمة هي الأخرى تعلقت بدور المعلم أو المربي، كما شاء لروسو أن يصفه، فعلم هذا الأخير لا يتحدد - كما سبقت الإشارة - في فرضه لجملة من المعارف والمعلومات، بل يكمن بالدرجة الأولى في مدى قدرته على توجيه الفرد المتعلم، ومعرفة الأنسب له وفقا لميولته، وفي هذا السياق إشارة للموضوعات الدينية كمثال عرضه روسو، حيث أشار إلى أنه نظرا لطبيعة هذه الموضوعات المتسمة بالصيغة المتعالية والميتافيزيقية، فلا ينبغي أن يتلقاها المتعلم في السنوات الأولى من حياته التعليمية؛ وذلك لأنّ عقله لم يستطيع بعد إدراك مواضيع من هذا القبيل، أي مواضيع لا تجسّد ولا تمثّل لها على أرض الواقع، روسو هنا يؤكد على دور المربي المتمثل بالدرجة الأولى في توجيه المتعلم فقط دون أن يفرض عليه أي معتقد يراه هو ووفقا لقناعاته الشخصية أنه هو الحقيقة (روسو. 2012)، بمعنى أنه يجب على المربي أن يفسح المجال للمتعلم لخوض رحلة الاستكشاف هذه بحثا عن الحقيقة (روسو. 2012).

1- التربية باعتبارها نشاطا تفاعليا مشتركا

يتضح مما سبق عرضه انطلاقا من النموذجين السابقين، أنّ التربية عند الفيلسوف ليس تلقينا بالمعنى التقليدي للكلمة، بل هي عملية أعمق من ذلك بكثير، لا تتوقف عند حدود تلقين المعارف الجاهزة، والعمل على إثقال كاهل المتعلم بالكم الهائل من المعلومات المتعددة بتعدد المشارب والمذاهب، بل تتجاوز هذا المستوى إلى مستوى ثان تكون فيه التربية إطارا شاملا لكل الأبعاد الإنسانية سواء نفسية، اجتماعية، ثقافية، أخلاقية وحتى روحية، وعملية مصاحبة لهذا الكائن منذ ولادته وإلى حين وفاته.

وفي هذا السياق يحضر تصور للفيلسوف والمربي الأمريكي المعاصر جون ديوي الذي حدد التربية بوصفها الوسيلة الأنسب لتمكين الفلسفة من التعبير عن نفسها. فالتربية حسب تصوره تمثل الإطار العملي التطبيقي للتصورات الفلسفية، وفي ذات السياق يمكن الإشارة إلى أن للفلسفة دورا تلعبه هي الأخرى، يتجلى بالدرجة الأولى في مد التربية بالتوجيه النظري الذي يدفع الناس ويعودهم على التفكير بشكل واسع ومعقد، في مختلف القضايا المعروضة فوق طاولة النقاش. إن الفلسفة كما جاء في تعريف ديوي لها، هي تفكير في التفكير (جعفر. د. ت)؛ أي التفكير في الطريقة التي ينبغي اتخاذها وسيلة للبحث في القضايا التي تُعرض للفحص والمناقشة، لأنه لا بد من اختيار الوسيلة الصحيحة لبلوغ نتائج صحيحة بدورها.

يميز ديوي بداية بين نوعين من التربية: الأولى وصفها بالقديمة لأنها قديمة قدم الإنسان، يتم نقلها من جيل لآخر ومن مجتمع لآخر عن طريق الممارسة السلوكية المباشرة (ديوي. 1978)، وهي نمط لا يعتمد على التلقين إلا في الجانب المتعلق بالأمر الديني والأخلاقي، وذلك نظرا للأهمية التي يطرحتها على الجانبين ومدى تأثيرها على سلوك الفرد خاصة داخل المجتمع الذي ينتمي إليه. أما النوع الثاني فهو المتعلق بالشأن المدرسي؛ إذ في هذا الإطار يتم تعليم التنشئة عن طريق التلقين، أي تلقين جملة من المعارف المختلفة والنظريات المتعددة التي مرت في الماضي والتي لا تزال تلقى إلى اليوم على مسامع الطلاب. لا يكون من ورائها هدف -حسب ديوي- سوى ملء عقول الناشئة بكم هائل من المعلومات النظرية والمعارف البعيدة عن الحياة اليومية، فضلا عن إشعارهم بالملل في كل مرة يستمعون فيها لنفس هذه المعارف والنظريات (ديوي. 1978).

وبما أنّ الوقت لن يسعنا في هذه المقالة لعرض أفكار هذا الفيلسوف بشكل دقيق، سوف نقصر فقط على عرض تصوره التربوي في علاقته بالمجتمع، مع العلم أن التربية بالنسبة له هي عملية اجتماعية تفاعلية ومباشرة تنطلق من الواقع لتعود إليه، وهنا لا بد من الإشارة إلى تشابه تصور هذا الفيلسوف مع التصور التربوي المعاصر الذي يعود إلى صاحبه أنطونيو غرامشي، هذا الأخير أكد بدوره على ضرورة التأليف بين المعارف النظرية والفعل الميداني المرتبط بالواقع الاجتماعي (الخويدلي. 2017)، ومنه السعي إلى إحياء هذا البعد السوسولوجي للتربية وبناء تنشئة مثقفة تتعدى الحضور الشكلي إلى التطبيق الملموس على مستوى الحياة العملية (الخويدلي. 2017).

لقد أكد ديوي إلى جانب غرامشي وفي العديد من المناسبات على ضرورة ربط المدرسة بالمجتمع (الخويدلي. 2017)، إذ ينبغي النظر لها بوصفها امتداد له (Field, n.d). بالإضافة إلى أنّ إحياء هذه العلاقة الوشيحة وكذا الحفاظ عليها، سيكون له انعكاس إيجابي بشكل كبير على تكوين التنشئة، وستمكنهم من تطوير قدراتهم، وكذا تزويدهم بالقدر الكافي من المعارف، بل الآليات التي ستجعلهم أعضاء فاعلين داخل مجتمعهم، وشخصيات فاعلة داخل سياق العمل نفسه (ديوي. 1978). فالمجتمع لا يمكنه أن يكون متصالحا مع نفسه، إلا إذا كان صادقا في تسييره لأفراده بشكل أفضل، لكن تحقيق هذا الهدف ليس بالأمر الهين إذ أن مسألة ربط المدرسة بالمجتمع أصبحت من المسائل العويصة التي يصعب إيجاد حل لها في سياق فلسفة التربية (ديوي. 1978)، مقارنة بما يسود من نظم تربوية في مجتمعاتنا الحاضرة.

إنّ الهدف هو إحياء هذا المنسي، فالتربية حسب تصور ديوي هي الأصل الذي تتأسس عليه كافة النظم الأخلاقية والاجتماعية؛ بموجبها يستطيع الإنسان تطوير مداركه وقدراته التي تجعل منه عضوا فاعلا داخل السياق الاجتماعي الذي يعيش فيه (Dewey, 2001)، والتميز بتقاليد المتنوعة وقيمه المتعددة.

لهذا نجد أنّ الأسس العامة لفلسفة التربية مشتقة من الفلسفة العامة للمجتمع الذي نشأ فيه ذلك التعليم. ومنه فلا بد في إطار تحليلنا لأي نوع من التربية السائدة، أن نأخذ بعين الاعتبار مقومات المجتمع الذي أنشأها، وذلك لأنها تُعبر عن جانب آخر من جوانب الحياة الاجتماعية (ديوي. 1978). هذه هي الفكرة التي لطالما دافع عنها ديوي وسعى لتحقيقها مركزا على أهميتها الكبيرة في الرقي بالمستوى التعليمي والاجتماعي للطالب بوصفه عضوا فاعلا داخل مجتمعه.

لقد أكد ديوي على ضرورة إسقاط النظرة الفردية التي صاحبت المدرسة ولخصتها في إطار العلاقة الثلاثية الجامعة بين المعلم والتلميذ والديه، مؤكدا على أن هذه العلاقة حتى وإن كانت تعبيراً عن الدور الرئيس للتربية إلا أنها لا ترقى إلى تحقيق غاية شاملة تستهدف المجتمع في صورته الموسعة، ومنه يبدو أن هدف ديوي الحقيقي وراء ربط التربية/ المدرسة بالسياق الاجتماعي، هو تحقيق غايات واسعة ونتائج عملية لا تقف عند حدود الفرد بل تستهدف المجتمع بأسره.

وهي نفسها الفكرة التي دافع عنها غرامشي الذي نظر للتربية بوصفها أداة لتحقيق ثقافة الإبداع والابتكار، مؤكدا على ضرورة جعل المدرسة فضاءا موحدا لتشكيل ثقافة تجمع في طياتها بين القيم الإنسانية التي تلقاها الفرد المتعلم، ومجموع المهارات والخبرات التي اكتسبها (الخويدلي. 2017)، فبالنسبة له لا بد من الجمع بين الأمرين لتحقيق تربية فعالة وبناء مدرسة داعمة للثقافة والإبداع (الخويدلي. 2017).

ومنه يمكن القول إنّ كلاً من غرامشي وديوي يؤكدان على أنّ التربية التفاعلية القائمة على التجربة الحية والاحتكاك المباشر بالواقع وقضاياها (ديوي. 1978)، هي الأداة الفعالة لحل مشكلات المجتمع ومواجهة تحدياته المطروحة، فهذا الاحتكاك يدفع بالفرد إلى أعمال تفكيره وبالتالي إيجاد الحلول المناسبة، فضلا عن تعزيز الوعي النقدي الذي لطالما كان مدحوضا (الخويدلي. 2017).

إنّ التربية التفاعلية المنطلقة من الواقع، هي أساس بناء تنشئة قادرة على الإبداع والتواصل والتفاعل، تجمع في تكوينها بين الجانب النظري والجانب التطبيقي الإبداعي المتصل بالواقع، مؤسسة بذلك مدرسة خلاقة تفتح آفاق الإبداع والتواصل (الخويدلي. 2017)، ومتحررة ومنفتحة على واقع المجتمع وقضاياها المطروحة (الخويدلي. 2017).

12- نتائج الدراسة

جوابا عن السؤال الإشكالي المطروح، وبناءً على ما تم عرضه في هذه الورقة البحثية يمكن القول إنّ التربية التفاعلية هي النموذج الفعال لتعزيز التفاعل بين الأفراد داخل مجتمعنا المعاصر، فكما سبقت الإشارة إلى ذلك فالتربية عند الفلاسفة لم تكن مسألة تلقين

فحسب، بل حُددت بوصفها نشاطا متصلا بشكل مباشر بالذات الإنسانية ومتجدرا في عمق أبعادها، وهذا ما سعت فلسفة التربية إلى توضيحه مؤكدة على ضرورة إعادة النظر في المسائل التربوية، ونقدها واقتراح بدائل عنها وكمثال هنا التربية التفاعلية بلغة ديوي، التي أضحت نموذجا فعالا لبناء مدارس خلاقة بلغة غرامشي؛ أي مدارس تجمع بين النظر والتطبيق سعيا إلى تحقيق التفاعل والإبداع وبناء ثقافة إنسانية بالمعنى الصحيح لكلمة إنسانية.

13- مناقشة النتائج

التربية وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، ليست تلقينا بل هي موضوعا فلسفيا شهد اهتمام تلة من الفلاسفة والمفكرين المهتمين بالشأن التربوي، الذين نظروا لها بوصفها عملية اجتماعية تجمع بين البعد النظري والعملي، أي تجمع بين مجموع القيم التي يتلقاها المتعلم وما يربطها بالواقع أو المحيط الاجتماعي، فعمق التربية بهذا المعنى يتحدد من خلال كونها عملية لبناء الذات الإنسانية والإحاطة بأبعادها، وتمكينها من تعزيز مهارة النقد لديها.

لكن ينبغي الإشارة إلى أنّ تحقيق ذلك لن يكون بالأمر الهين بل يستدعي ثورة، خاصة إذا كان السياق لا يسمح بهذا التعديل، الأمر الذي قد يجعل من هذا النموذج الجديد في التربية حبيس التصور النظري فحسب، ففي ظل عالم لا تحركه إلا المصالح الشخصية يكون من الصعب فسح المجال أمام هذا النوع الجديد من التربية للتغلغل في واقع الحياة والتجدر فيها، خصوصا إذا كان النموذج الكلاسيكي في التربية يُروج لأفكار وإيديولوجيات محددة من طرف جهات محددة بدورها.

14- الخلاصة

يبدو من خلال ما سبق أنّ التربية الكلاسيكية والتربية التفاعلية، يُشكلان نمطين مختلفين للتعلم، فالتربية الكلاسيكية كما بينت الدراسة تقوم أساسا على فكرة التلقين والقمع والانضباط والسلطة، وتنتظر للمتلم كصفحة بيضاء ينبغي حشوها بكم هائل من المعلومات والمعارف المتعددة.

وهذا على عكس ما تقوم عليه التربية التفاعلية التي تمثل نموذجا ثانيا في التعلم، يختلف بمبادئه وأساسه عن النمط الكلاسيكي التقليدي، إذ يُركز هذا النمط على أهمية التجربة، والتفاعل، وإشراك المتعلم في العملية التربوية.

ومنه فالتربية الكلاسيكية يمكن اعتبارها بمثابة بديل فعال لإعداد الفرد للتفكير النقدي والمشاركة وتزويده بالأليات التي ستمكنه من واجهة التحديات التي يعرفها مجتمعه وكذا التكيف مع محيطه ومواكبة مختلف التحولات والتغيرات المصاحبة لحركية مجتمعه.

ففي ظل ما يشهده العالم من تحولات سريعة وما خلفته هذه الأخيرة من انعكاسات خاصة على مستوى القضايا الإنسانية كالهوية والثقافة، بات من الضروري صياغة نموذج تربوي يأخذ على عاتقه مهمة الحفاظ على الروابط الإنسانية وذلك بالاعتماد على آليات فعالة تمكن الإنسان من التفاعل الخلاق مع محيطه ومع العالم.

15- التوصيات

خرجت هذه الدراسة بجملته من التوصيات يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- 1- إعادة النظر في فلسفة التربية.
- 2- إعادة التفكير في النماذج التربوية الحالية وفق رؤية فلسفية نقدية.
- 3- اعتماد تربية تتناسب وواقعنا الحالي.
- 4- فسح المجال أمام تعديل النظم التربوية وتعديلها بما يتناسب مع حاجيات المتعلمين.

المصادر والمراجع العربية:

- ديوي، جون. (1878). *المدرسة والمجتمع* (ترجمة أحمد حسين الرحيم، الطبعة الثانية). بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
- روسو، جان جاك. (د.ت). *إميل أو في التربية* (ترجمة نظمي لوقا). القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر.
- روسو، جان جاك. (2009). *خطاب في أصل التفاوت وأسس بين البشر* (ترجمة بوليس غانم، تقديم عبد العزيز لبيب، الطبعة الأولى). بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- روسو، جان جاك. (2012). *بين الفطرة* (ترجمة عبد الله العروي). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- زهير، الخويلدي. (2017، يوليو 10). *التربية على الثقافة والإبداع عند أنطونيو غرامشي*. مجلة كتابات. <https://kitab.com>
- طاهر، مولاي، سعيدة، (د.ت). *التربية عند روسو*. مجلة متون، (15). <https://www.asjp.cerist.dz>
- مرسي، منير محمد. (د.ت). *فلسفة التربية: اتجاهاتها ومدارسها*. القاهرة: عالم الكتب.
- نوري، جعفر. (د.ت). *جون ديوي: حياته وفلسفته*. بغداد: مطبعة الزهراء.
- هوندرتش، تد. (د.ت). *دليل أوكسفورد للفلسفة: الجزء الأول من حرف أ إلى حرف ط* (ترجمة نجيب الحصادي). ليبيا: المكتب الوطني للبحث والتطوير.
- وهبة، مراد. (2007). *المعجم الفلسفي*. القاهرة: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع.

المصادر الإنجليزية

- Baldacci, M. (n.d.). Philosophy of praxis and education in Gramsci. *International Gramsci Journal*. Retrieved from <https://journals.uniurb.it/index.php/igj/article/view/4911>
- Dewey, J. (n.d.). *Education and democracy: An introduction to the philosophy of education*.
- Eliot, C. W. (n.d.). *Herbert Spencer: Essays on education and kindred subjects*. Liberty Fund. Retrieved from <https://oll.libertyfund.org/pages/spencer-on-education>
- Field, R. (n.d.). John Dewey (1859–1952). *Internet Encyclopedia of Philosophy: A Peer-Reviewed Academic Resource*. Northwest Missouri State University. Retrieved from <https://iep.utm.edu/jho-dewey>
- Ford, D. R. (2021). Pedagogically reclaiming Marx's politics in the post-digital age: Social formation and Althusserian pedagogical gestures. *Postdigital Science and Education*. Springer. <https://doi.org/10.1007/s42438-021-00238-4>